العولمة وتعاليم الإسلام -بين إلغاء قيم الآخر وتقبُّلها-

الدكتور ماهر دربال[1]

خلاصة:

يهتمّ هذا البحث بمظاهر هيمنة العولمة على شعوب العالم من خلال إنتاج قيمها الاقتصاديّة الليبراليّة المتوحّشة، وتسويق الثّقافة الأمريكيّة ونمط الحياة اليوميّة للشّعب الأمريكيّ وعاداته ولغته ونشر الوسائط التكنولوجيّة الحديثة في العالم باعتبارها وسيطًا إعلاميًّا وتربويًّا وثقافيًّا قادرًا على إلغاء الحدود بين الشعوب. ولكنّها تتحوّل يومًا بعد يوم إلى أداة لهدم قيم إنسانيّة وأخلاقيّة.وهذا ما يفضي إلى الوعي بخطورة العولمة وسطوتها ورغبتها الجامحة لفرض قيمها.لذلك تحاول شعوب العالم التّمسّك بقيمها الاجتماعيّة والأخلاقيّة والدّينيّة، ولا سيّما الإسلاميّة التي تنهض على قبول الرّأي المخالف والحوار والحرّيّة وغيرها.

مصطلحات مفتاحيّة:

العولمة، الإسلام، القيم، الأمركة، المجتمع، الثقافة، تكنولوجيا المعلومات، الآخر، الإلغاء، الحوار، الانفتاح.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من تونس.

مقدّمة:

لا شكّ أنّ العولمة أصبحت من المفردات المستعملة بكثرة في الخطابات السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة؛ وحتّى الدينيّة، ولكنّها مازالت محاطة بالغموض على مستوى مدلولها أو في نتائجها لدى مجموعة كبيرة من الناس؛ بالرغم من أنّ تأثيراتها المتحقّقة ذات خطورة عميقة في العالم.

ويرى الباحثون في العولمة أنّها تتحرّك سريعًا نحو إنتاج قيمها وتنتشر بطرق شتّى تهدف إلى القضاء على الثقافات الخاصّة لدى الشعوب، وعلى القيم الدينيّة والأخلاقيّة. وبما أنّ الناس في البلدان العربيّة والإسلاميّة متمسّكون بقيمهم الإسلاميّة والمحلّيّة؛ فإنّهم يشعرون بتهديدات حقيقيّة على وجودهم أمام سطوة العولمة الوافدة من العالم الغربيّ. فماهو مفهوم العولمة؟ وماهي تجلّياتها وتأثيراتها علىالبلدان العربيّة؟وماهي علاقتها بالقيم الإسلاميّة؟ وما هو دورها في سياق العلاقة مع الآخر؟

أوّلًا: العولمة.. جدل المفهوم:

ظهرمصطلح العولمة في حقبة تسعينات القرن الماضي[1]، وقد تواتر استخدامه حتّىأضحت العولمة مسألة معقّدة ومتشعّبة تحيط بها الصعوبات من كلّ ناحية؛ باعتبارها ذات ارتباط وثيق بكلّ الجوانب السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والتكنولوجيّة وغيرها من الأبعاد[2].

ويقوم مفهوم العولمة على فكرة تقوية أواصر الترابط العالميّ الذي يتبلورفي أشكال مختلفة تتراوح بين العلاقات الاجتماعيّة بين الناس في كلّ أنحاء العالم، والعلاقات الثقافيّة والاقتصاديّة التي تعتمد على التطوّرات التقنيّة؛مثل: النقل الجوّيّ السريع، وأنظمة الاتّصالات الإلكترونيّة. وقد

(1) العولمة (globalisation) مصطلح استعمله المفكّر «ماك لوهان» لأوّل مرّة سنة 1970م، في كتابه «حرب وسلام في القرية الكونيّة»؛ وتعني تنميط الثقافات والأفكار والقيم والأسواق.

(2)انظر: علي، نبيل: «الثقافة العربيّة وعصر المعلومات»، سلسلة عالم المعرفة،تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد276، كانون الأوّل 2001م، ص39.

أدّى هذا التقارب المتزايد بين البشر إلى ظهور مصطلحات معبّرة عنه؛ مثل: القول بتقلّص المسافات وانكماشها، وقياس المسافة المكانيّة بالزمن، والقول بالقرية العالميّة التي أضحى البشر يعيشون فيها.

ويرى بعض الباحثين أنّ الهدف الأبرز للعولمة يكمن في فرض الليبراليّة الجديدة، واقتصاد السوق الحرّ، والنمط الاستهلاكيّ الذي يقوده أنموذج الرأسماليّة الغربيّ في صياغته الأمريكيّة؛ وهو الأنموذج الذي بسط نفوذه على العالم إثر انهيار المعسكر الاشتراكيّ في أواخر ثمانينات القرن الماضي.

ولذلك، فإنّ العولمة «تبحث لنفسها عن معايير ومقوّمات تحوّل شروط الليبراليّة الاقتصاديّة الجديدة التي تقوم عليها، إلى قيم إنسانيّة شاملة، ترسّخها كإيديولوجيا جديدة»[1]. ومن أهداف العولمة -أيضًا- تحويل العالم إلى مكان واحد،بحيث تنتفي الخصوصيّات المحلّيّة التي تميّز البلدان والشعوب المختلفة، وتتغلّب القوى العالميّة المهيمنة على كلّ الدول والأمم على مستوى السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها.

ويؤكّد مؤيّدو العولمة أنّها ذات نتائج إيجابيّة من حيث النموّ الاقتصاديّ، أو التقدّم التكنولوجيّ، أو من جهة نشر الديمقراطيّة والدفاع عن حقوق الإنسان. ومن منافع العولمة تقليص «المسافات بين الأمم والشعوب، فأضحت العلاقات بين الأنا والآخر علاقات يوميّة وشيجة تمهّد لمزيد من التعارف وتبادل المصالح والعمل المشترك»[2].

ولكنْ في المقابل يوجد للعولمة رافضون ومهاجمون؛ لأسباب سياسيّة أو اقتصاديّة أو دينيّة أو ثقافيّة. وقد تعالت في الدول العربيّة صيحات الرفض من قِبَل بعض الماركسيّين أو القوميّين العروبيّين أو من قِبَل بعض الإسلاميّين والمثقّفين، ولكنّها صيحات خافتة ومؤقّتة سرعان ما خمدت

(1)ابن عثمان، حاتم: العولمة والثقافة، ط1، الأردن، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1999م، ص20.
(2)ابن عامر، توفيق: «حتميّة الحوار في عصر العولمة»، مجلّة الحياة الثقافيّة، تونس، العدد171، 2006م، ص42.

بالرغم من تصريح بعض الرافضين بأنّ العولمة نوع جديد من الإمبرياليّة الاقتصاديّة والتكنولوجيّة والثقافيّة، وإقراربعضهم الآخر بأنّها تساهم في محو التاريخ العربيّ والإسلاميّ التليد، وتقضي على تراثهم، حيث يقرّ بعض الباحثين بأنّ للعولمة فوائد للشعوب العربيّة، «ولكنّها -أيضًا- تنطوي على مخاطر جمّة ليس أيسرها ذوبان الشخصيّة وانحلال رباط الأمّة الذي هو اللغة والثقافة»[1]. ولم تجد بعض التنظيمات الدينيّة في الدول العربيّة من سبيل لمعارضة العولمة والقطيعة معها إلّا في الانخراط في مهاجمة الغرب وأمريكا ومن يتعاملون معها، والتشبّث باستعادة تاريخ السلف الصالح.

إنّ العولمة في النهاية ثقافة لا بالمعنى الشائع الذي يحدّدها في منتجات الفنّ والأدب والموسيقى والمسرح والسينما وغيرها. فهذه كلّها جوانب ثقافيّة مهمّة، لكنّها لا تكفي لتعريف البعد الثقافيّ بمعناه الأنتروبولوجيّ العامّ الذي يتّسع لكلّ الممارسات اليوميّة، ويرتبط برؤية كاملة للحياة ولطرق التفكير.

وبهذا المعنى، فإنّ ثقافة العولمة الوافدة على البلدان العربيّة تتضمّن خطورة بالغة؛ لأنّها تحمل إلينا إيجابيّاتها وسلبيّاتها في آن واحد. ومن الممكن أن تتضمّن فيما تحمله ما يؤثّر في علاقة الناس بالوطن وبالتراث وبالهويّة وبالثقافة المحلّيّة وبسائر المفاهيم والقيم والرغبات.

وقد لا تتجانس مشاريع مؤسّساتنا التربويّة وأكاديميّاتنا ومشاريعنا السياسيّة مع ما يَرِد علينا في ثقافة العولمة؛ بل ربّما قد تتهدّم هذه المشاريع، ويصيبنا الفشل والإحباط والشعور بالضعف والظلم أمام سطوة العولمة وثقافتها المستبدّة. ولكن، ما نراه في مجتمعنا العربيّ هو استقبال ثقافة العولمة بسلبيّاتها وإيجابيّاتها؛ وكأنّها قدر مسلّط من السماء لا يجوز ردّه أو الخوض فيه،فلم تنل هذه المسألة ما تستحقّ من نقاشات وحوارات

(1)القليبي، الشاذلي: أمّة تواجه عصرًا جديدًا، لا.ط، تونس، دار البستان، 2000م، ص67.

وتوعية في خطابات السياسيّين والأكاديميّين والمثقّفين والإعلاميّين.

إنّ العولمة ليست هي بالظّلام القاتم، ولاهي بالصباح المشرق. ولذلك لابدّ من التعامل معها بمواجهة ما تفرضه من قيود، وما تتيح من فرص، وبالوعي بخطورتها وبفوائدها وبما يتطلّبه منّا واقعنا وحاضرنا ومستقبلنا، وبمعرفة تجلّياتها التي من أهمّها الأمركة وتكنولوجيا المعلومات.

ثانيًا: قيم الأَمْرَكَة في سياق التوظيف العولميّ:

أصبحت أمريكا،وبخاصّة بعد سقوط الاتّحاد السوفياتيّ، القوّة العالميّة المهيمنة، وفي ظلّ مناخ اتّصاليّ مُعَوْلم تعمل باستمرار على جعل ثقافتها ورؤيتها إلى العالم، الأنموذج الأوحد الذي يسود إعلاميًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا. وفي هذه العقود الأخيرة استفردت أمريكا بمصير العالم وبأقدار الشعوب والأرض، بعد أنْ كانت في النصف الأوّل من القرن العشرين ملاذًا للمثقّفين والكتّاب والباحثين عن العمل وفضاءً للحرّيّة، فأصبحت تمارس أقصى أشكال العنف الرمزيّ والعسكريّ إزاء الإنسان، في ظلّ تراجع الاعتراف بالآخر المختلف في الفكر والثقافة.

وتستغلّ أمريكا -اليوم-معرفة عصر المعلومات، من أجل عَقْلَنَة قوى العولمة، وبخاصّة من الناحيّة الاقتصاديّة والإعلاميّة؛ حيث «تعمل المؤسّسة الأكاديميّة الأمريكيّة على تقديم الغطاء المعرفيّ للعولمة بصيغتها الأمريكيّة، في صورة فكر يفتّت حتميّة العولمة، إلى مجموعات من الحتميّات»[1]؛ وهي:

-حتميّة اقتصاديّة تقتصر على الرأسماليّة الليبراليّة

-حتميّة إعلاميّة تقوم على إعلام له نفوذ عالميّ

-حتميّة لغويّة بفرض الإنجليزيّة دون غيرها من اللغات

-حتميّة أخلاقيّة من خلال نشر خُلُق عالميّ وفق المفهوم الأمريكيّ

(1)عليّ، الثقافة العربيّة وعصر المعلومات، م.س، ص422.

ويقول أحد رجال الاقتصاد في أمريكا «إنّه من الممكن حلّ مشكلة تلوّث الهواء؛ لو تحوَّل الهواء إلى سلعة». ويؤدّي هذا القول إلى الإقرار بأنّ كلّ شيء في مجتمع السوق والمال والاقتصاد قابل للتسليع والتوزيع، حيث أصبح كلّ شيء قابلًا للبيع والشراء؛ سواء أكان منتوجًا طبيعيًّا أم صناعيًّا، أو منتوجًا إبداعيًّا أم معلومات؛ حتّى ولو كان ذلك على حساب منظومة القيم والأخلاق والصحّة البشريّة.

ولقد هيمن الاقتصاد الأمريكيّ على الدين والجوانب الروحيّة والميتافيزيقيّة، وأفضى كلّ ذلك إلى تراكم الثروة الماليّة؛ بوصفها مصدرًا للقوّة، بالإضافة إلى تراكم الثروة المعرفيّة؛بوصفها نتاج عصر المعلومات، من أجل إحكام قبضة القوى الرأسماليّة على مصائر البشر، فأضحت أغلب الدول في العالم ملتزمة بقوانين السوق الغربيّة، وممتثلة لتعليمات البنك وصندوق النقد الدوليَّين.

وتشهد الوقائع الاقتصاديّة في الدول العربيّةعلى أنّها ليست مجالًا مستقلًّا بذاته. ومن دون الدخول في تفاصيل الواقع الاقتصاديّ في العالم العربيّ لا يمكن إنكار التبعيّة للاقتصاد الغربيّ المفروضة عليه. والصفة الأبرز للاقتصاد الليبراليّ الحرّ هي عدم مراعاة مصالح الناس كلّهم؛ ما أدّى إلى انعدام العدالة في توزيع الموارد والعوائد والثروات، سواء بين الطبقات أم بين البلدان؛ ولذلك برز تفاوت كبير بين رجال الأعمال والأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال، وبين الطبقات المتوسّطة والفقراء والمحتاجين وضعاف الحال. وبالإضافة إلى هيمنة الاقتصاد الأمريكيّ على العالم وفرض سيطرته على الدول النامية، تُهدّد الأمركةُ حرّيّةَ الإنسان وخصوصيَّته الثقافيّة، وتحاول تسويق الثقافة الأمريكيّة في العالم فيما يخصّ نوعيّة الأطعمة والغذاء واللباس، ومحاولة محو العادات والتقاليد الخاصّة بالشعوب. فأصبحت صورة المجتمع الأمريكيّ الصورة الأنموذجيّة المصدَّرة في أنحاء العالم. كما تحوَّلت اللغة الإنجليزيّة إلى

سيّدة اللغات؛ باعتبارها مستعملة في الفنون والسينما والإنترنت وسائر الميادين، وقد عبّر الفيلسوف الأمريكيّ روي ويزرفورد (weatherford) عن سعادته برؤية الإنجليزيّة وهي تحتلّ مكان اللغات الأخرى،حيث لقيت هذه اللغة إقبالًا لا نظير له في العالم وفي البلدان العربيّة، بعد أن روّج الإعلام والمؤسّسات التعليميّة لقيمتها في الحصول على العلوم المختلفة على حساب اللغة العربيّة التي تعمل بعض الأصوات السياسيّة والإعلاميّة والثقافيّة على نفي جدواها في المجال العلميّ والثقافيّ. وليس هناك ما هو أسوأ أخلاقيًّا من سلب الإنسان لغته ونسف ثقافته. ولذلك وجدت الشعوب والمجتمعات أنفسها معرّضة لخطر الإبادة والمحو أمام قوّة الأمركة الغازية. ونحن في عالمنا العربيّ نجد في الحقبة الأخيرة طرحًا قويًّا لمسألة الهويّة والتراث وموجات التمسّك بالعادات والتقاليد والثقافة المحلّيّة؛ نتيجة الشعور بقوّة الغزو الثقافيّ الأمريكيّ والغربيّ الذي يقتحم حياتنا.

لقد سعت أمريكا، إثر انهيار المعسكر الاشتراكيّ، إلى تدويل الأنموذج الأمريكيّ، من خلال مخطّط العولمة الذي لا يكتمل إلّا بدعم من المنظّمات العالميّة؛ كالاتّحاد العالميّ للاتّصالات؛ لإضفاء الشرعيّة الدوليّة على ممارسات العولمة الأمريكيّة. ولا أحد ينكر -اليوم- هيمنة الثقافة الأمريكيّة على بلداننا العربيّة برموزها المعياريّة، وعلاماتهاالتجاريّة التي تتمتّع بذيوع عالميّ؛ على مستوى المأكل والمشرب والملبس والفنّ والموسيقى...

وتعدّ هيمنة الثقافة الأمريكيّة على العالم مقدّمة أساسيّة للعولمة؛ وهي وجه من وجوه الإمبرياليّة الثقافيّة التي تجمع عددًا من خطابات الهيمنة؛ هيمنة أمريكا على أوروبا، وهيمنة الغرب على بقيّة أجزاء العالم... وهيمنة العالم الحديث على العالم التقليديّ، وهيمنة الرأسماليّة

على كلّ شيء، وكلّ شخص تقريبًا[1]. فالثقافة الأمريكيّة هي ثقافة الرأسماليّة والليبراليّة الجديدة المتوحّشة التي تحتوي على قيم رأسماليّة واستهلاكيّة، وأنظمة إعلاميّة وإشهاريّة أنتجتها معطيات الواقع الأمريكيّ؛ السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ. وإنّ انتشارها العالميّ هو إسقاط للقيم الأمريكيّة على الشعوب الأخرى في شكل إمبرياليّ، ومحاولة لإظهار ما هو خاصّ بأنّه كونيّ؛ بما يؤدّي إلى تقويض الديمقراطيّة التي تقوم عليها فكرة التعدّد الثقافيّ في العالم. فهل يوجد ما هو أخطر على المجتمع من تعرّضه لإبادة ثقافته وتاريخه وعاداته وتقاليده وقيمه؟!فالمسلمون ليسوا ضدّ استعمال تكنولوجيا المعلومات في حياتهم اليوميّة، ولكنْ هل هم واعون بسلبيّات هذه التكنولوجيا وبخطرها عليهم في هذه اللحظة التاريخيّة الحاسمة من وجودهم؟ وكيف السبيل للاستفادة من هذه الوسائط الحديثة واستثمارها لمقاومة حملات التشويه والمغالطات التي تلاحق الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربيّ؟

ثالثًا: تكنولوجيا المعلومات ودورها في رسم الهويّة القيميّة للمجتمعات:

مازالت التكنولوجيا، بالنسبة إلينا في البلدان العربيّة، ظاهرة وافدة لم تنغرس بعد في تربتنا، ولذلك، نحن نعيش تبعيّة تكنولوجيّة قاهرة وحتميّة.

وتُعدّ تكنولوجيا المعلومات الأداة الأبرز التي تقوم عليها العولمة، حيث أحدثت نقلة نوعيّة في حياة البشر كلّهم؛ بما تتيحه من بدائل عديدة؛ لإعادة تشكيل المفاهيم، وإعادة بناء نظم الحياة والمؤسّسات والمجتمعات.وهي تتسرّب إلينا في خطورة بالغة؛ إنْ لم نحسن التعامل مع الوسائط الحديثة.

(1) تومليسون، جون: «العولمة والثقافة»، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمّد، سلسلة عالم المعرفة، م.س، العدد354، آب 2008م، ص112.

لقد أصبحنا نرى العالم بصورة أكثر تجريدًا من ذي قبل؛ وذلك بفعل الوسيط المعلوماتيّ. فمن خلال شاشات التلفزيون والحاسوب وبقيّة الوسائط؛تمكّنّامن رصد وقائع العالم وأحداثه ومساراته،بعد أن كنّا في الماضي نتعامل مع المحسوسات في الواقع المادّيّ العينيّ؛ من طرق، ومواصلات، ورسائل ورقيّة، وعملات نقديّة. وصرنا الآن نتعامل مع رموز وأرقام ومؤشّرات بفضل الوسائط الإلكترونيّة.

ولكنْ، مازالت تكنولوجيا المعلومات في البلدان العربية لم تنتشر انتشارًا واسعًا لدى فئات المجتمع وفي مجالات الحياة كلّها؛ كما هو الشأن في البلدان المتقدّمة.وبرغم ذلك، فمجتمعنا يعيش -مثل بقيّة المجتمعات العربيّة-مرحلة مخاض عسير على عتبات مجتمع المعلومات والوسائط التكنولوجيّة الحديثة. ومع هذه التحوّلات المثيرة للخوف والغامضة تتعالى صيحات المبشّرين بدخول البشريّة في عالم النهايات: نهاية الجغرافيا والتاريخ، ونهاية الكتاب والمكتبة والورق، وتحوّل العالم إلى قرية صغيرة تهدّمت فيها الحدود بين القارات والدول والشعوب.

لقد انقضّت تكنولوجيا المعلومات على الثقافة والإعلام والتربية من خلال شبكة الإنترنت التي تتحوّل تدريجيًّا إلى وسيط إعلاميّ وثقافيّ وتربويّ جديد ومثير وذي خطورة، في مقابل انهيار منزلة المثقّفين والإعلاميّين والمربّين؛ لأنّ شبكة الإنترنت تكاد تعوِّضهم بما تُقَدِّم من ملايين الصفحات؛ من الموادّ الثقافيّة، والعلميّة، والإخباريّة، والتربويّة... فبرز -بفعل ذلك- واقع سلبيّ في البلدان العربيّة أمام النخب المثقّفة ومؤسّسات الإعلام والمربّين، وانتشر الشعور بالإحباط واليأس، وكسدت مؤسّسات الإعـلام والصحف، وقلّ ترويج الكتب والمجلّات، ونقص المقبلون على المسارح وقاعات السينما واللوحات التشكيليّة والعروض الثقافيّة المختلفة. وما من سبيل أمام الجميع إلاّ توظيف هذه الوسائط الحديثة، وحسن استخدامها؛ لابتكار طرائق جديدة في التواصل مع

المجتمع، واستخدام التقنيّات الملائمة؛ للمحافظة على بقائهم، وإيصال منتوجهم الثقافيّ والإعلاميّ والتربويّ بصيغ تتناسب مع التغييرات التكنولوجيّة التي تظهر كلّ يوم في الواقع العالميّ الجديد.

كما أنّ من بين التحدّيات التي يواجهها المثقّفون في البلدان العربيّة والإسلاميّة هي المساهمة في صياغة صورة حقيقيّة وإيجابيّة عن العرب والمسلمين في الإنترنت؛ من حيث الحضارة والتراث والثقافة والقيم؛ لمحو المغالطات والتشويه الذي لحقهم من العالم الغربيّ. فخطر الإنترنت «يكمن في أن تعود إلينا صورة تراثنا مشوّهة، وأن ترسم لوحات تاريخنا المجيد بأيدي غيرنا، ومَن كان خصمًا لنا. فمظاهر التحريف كثيرة ومتنوّعة؛ منها: ما يتّصل بالعقيدة والدين، ومنها: ما يتّصل بالتاريخ والتراث...»[1].

إنّ الوسائط التكنولوجيّة الحديثة تسعى من دون أن نشعر بذلك إلى إيهامنا بالتقارب الفوريّ والسريع بين الشعوب والأفراد، ولكنّها في الحقيقة تمحو بصفة دراماتيكيّة قيم الصداقة والأخوّة والأسرة التي تقوم على التقارب الجسديّ المادّيّ والحميميّ المفعم بالانفعالات النفسيّة والعاطفيّة النابضة بالحياة، والمحبّة، والجاذبيّة، والتعاون، والأحاسيس الصادقة. فالاسراف في استخدام أدوات التواصل التكنولوجيّ يساهم في هدم تلك القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة التي تبلورت طيلة قرون بين الناس؛ لإعادة بناء قيم جديدة تنهض على ماهو خياليّ وافتراضيّ وآنيّ، لا ينأى بنا عن الواقع فحسب، وإنّما يسير نحو تغييره. والخطورة الكامنة في هذه الوسائط التكنولوجيّة أنّها تؤدّي بنا -يومًا بعد يوم- إلى الاستغناء عن التواصل المادّيّ والجسديّ بين الأصدقاء، والإخوة، والأهل، وأفراد المجتمع، وتعويضه بالتواصل الإلكترونيّ الجاف الذي فشل فشلًا ذريعًا في المحافظة على علاقات الألفة والحميميّة القويّة بين الناس.

(1) المصمودي، مصطفى: العرب في المجتمع الإعلاميّ،ط1، دبي،مركز المعلومات للدراسات والبحوث، 1997م، ص95.

ومن النتائج التي تمخّضت عن تكنولوجيا المعلومات أن «ليس لنا اليوم حياة مستقلّة بمنأى عن سيطرة هذه التكنولوجيا الآسرة...فقد أوشكت التكنولوجيا في غمرة نجاحها أن تستقلّ بذاتها وتفرض علينا منطقها وقيودها»[1]، فنحن اليوم نعيش صدمة كبيرة نتيجة تكنولوجيا المعلومات؛ لأنّها طرحت علينا مسائل كثيرة وقضايا شائكة ومعقّدة، وليس من اليسير أن نجد لها حلولاً؛ ومنها: علاقتنا بهذه التكنولوجيا نفسها التي أوهمتنا بأنّها أداة طيّعة في خدمتنا، وفي خدمة رغباتنا، وتحت سيطرتنا، ولكنّنا في الحقيقة وجدنا أنفسنا خاضعين لسطوتها، ومكبّلين بقيودها، وواقعين في أسر إغرائها وجاذبيّتها، وأصبحنا في حيرة من أمرنا بعد أن تداخل الواقعيّ بالافتراضيّ، والخاصّ بالعامّ، والنظام بالفوضى. وتكاد قيم عصر المعلومات تدمّر القيم المحلّيّة؛ سواء أكانت دينيّة، أم أخلاقيّة، أم ثقافيّة، وتُدخلنا اليوم في زمن جديد مليء بالاحتمالات، ومفتوح على مصير غامض ومخيف.

وقد جعلت تكنولوجيا المعلومات البشر -بعد أن أوهمتهم أنّها تحت سيطرتهم -خاضعين لها لا يقدرون على التحرّر من قيودها. وهي تدفع بهم نحو قيم الرأسماليّة المتوحّشة، وهتك ستر الحياة الشخصيّة ونشرها على صفحات الإنترنت، وإثارة الكراهيّة والفتنة بين الناس، وعدم احترام الأمانة العلميّة والملكيّة الفكريّة؛ إذ غالبًا ما يقع السطو على أفكار «الغير» من دون رقيب أو حسيب، وتوظيف الصور الإباحيّة الافتراضيّة، إلى غير ذلك من الممارسات والقيم الجديدةالتي تبشّر بإبادة القيم الدينيّة والأخلاقيّة السائدة لدى الشعوب. لذلك يرفض الملايين من الناس هذه الأخلاق التي تسوّقها العولمة، ويزدادون تمسّكًا بالقيم الدينيّة؛ولا سيّما الإسلاميّة.

(1) عليّ، الثقافة العربيّة وعصر المعلومات، م.س، ص400.

رابعًا: التعاليم الإسلاميّة والانفتاح على الآخر وقبوله:

إنّ التحدّي الأكبر الذي تواجهه الإنسانيّة اليوم يكمن في الحفاظ على القيم والأخلاق الذاتيّة الخاصّة بكلّ شعب وأمّة أمام هيمنة العولمة التي صنعت قيمها، وتبشّر العالم بكونيّتها، وبأنّها الأنموذج القيميّ الأجدر بالبقاء والانتشار، وأنّ غيرها من المنظومات القيميّة لا بدّ لها من الزوال والإقصاء؛بالرغم من تمسّك مئات الملايين من البشر في العالم بالقيم الدينيّة الإسلاميّة الخالدة التي تقوم على التواصل بين الشعوب، وقبول الرأي المخالف، والحوار، والحرّيّة، وغيرها من القيم التي لا يتّسع المقام لذِكْرها.

1. **التواصل بين الشعوب:** يدعو الإسلام بنصّ القرآن إلى التواصل بين الشعوب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[1]. والتعارف يقتضي التقارب والتواصل والتثاقف والتعاون مع الآخر، ولا يشكّل اختلاف بعض الشعوب عن بعضها الآخر عائقًا في إقامة علاقات قويّة ومثمرة في كلّ المجالات. بل إنّ التعرّف على شعوب مختلفة والتواصل معها، هو مصدر إثراء الأفكار والمعارف، ومن شأنه أن يساعد المسلمين على التعريف بثقافتهم وتراثهم ونشر لغتهم؛ بمنأى عن الانغلاق عن الذات، أو كراهية الآخر ومحاربته.

فلا بدّ من التّواصل مع أنصار الحرّيّة ودعاة السلام؛ وهم موجودون في دول العالم كافّة؛حتّى وإنْ لم تقبل الدّول الغالبة في العالم بالتواصل مع المجتمعات الضعيفة والمهزومة؛ مثل: المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، ولابدّ من ثقافة الصمود والتصدّي حتّى يقتنع أقوياء العالم بحتميّة التثاقف.

«إنّ الثقافة الأصيلة والحيّة لا تخشى الغالب، ولا يستهدفها الغزو

(1)سورة الحجرات، الآية 13.

الثقافيّ؛ لأنّها ذات مناعة ذاتيّة ضامنة لبقائها وحامية لوجودها... وبذلك نفهم لماذا لم يتمكّن الاستعمار البريطانيّ والفرنسيّ والإيطاليّ في الماضي من القضاء على الثقافة العربيّة الإسلاميّة»[1].فما من سبيل أمام الشعوب كافّة إلّا الالتزام بمبدأ الحوار؛ بعيدًا عن هيمنة القوى العظمى وتسلّطها واستعمالها لآليّات النفوذ والسيطرة؛ سياسيًّا وعسكريًّا وثقافيًّا؛ وذلك لتفادي التصادم والحروب، ولتجد المجتمعات المغلوبة مجالًا لإبلاغ صوتها، والتعريف بمواقفها، والتأثير في الرأي العامّ العالميّ.

2.**قبول الاختلاف:** ورد في القرآن ما يدلّ على قبول الإسلام للاختلاف: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾[2]، حيث يُفهَم من الآيتين أنّ الاختلاف هو جوهر الوجود الإنسانيّ ومبرّره؛ لأنّ الاختلاف بين الناس في الأفكار والمعتقدات والمعارف وأنظمة الحياة، هو نتاج معطيات جغرافيّة وتاريخيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وثقافيّة. ومن غير المنطقي أن يعيش جميع البشر في العالم على نمط واحد وشكل أوحد. وهذا ما تحاول نشره العولمة، وما لا تقبله الشعوب التي تدافع عن خصائصها. وهكذا نرى أنّ العقيدة الإسلاميّة تنهض على حسن معاملة «الغير»، وقبول الرأي المخالف، والعقيدة المختلفة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[3]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾[4]، كما ورد في القرآن دعوة لحسن معاملة المخالفين؛ ما لم يبادروا إلى العنف والقتل، وما لم يصدر منهم اعتداء: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[5]،

(1)ابن عامر، حتميّة الحوار في عصر العولمة، م.س، ص42.
(2) سورة هود، الآيتان 118–119.
(3) سورة البقرة، الآية 256.
(4) سورة المائدة، الآية 105.
(5) سورة الممتحنة، الآية 60.

فهل نقبل بعد كلّ هذه الدعوات القرآنيّة الصريحة أن نرى المسلمين يوصفون في الإعلام الغربيّ بخاصّة، بالإرهابيّين الذين لا يقبلون الآخر المختلف في المعتقد والثقافة؟!

3. **الحرّيّة في التعبير والحوار:** لا أحد ينكر القيمة الكبيرة التي أولاها القرآن للحوار والحرّيّة في التعبير. ويكفي أن نستعرض أنموذج الحوار الذي أورده القرآن الكريم: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾[1]؛ حيث يظهر من خلال هذه الآيات الآفاق الرحبة التي منحها الله للشيطان للحجاج والتعبير عن رأيه بكلّ حرّيّة من دون إقصاء أو إخماد لصوته؛ ما يجسّد مناخًا ديمقراطيًّا بامتياز في التحاور؛ على الرغم من أنّ الشيطان يُعدّ رمزًا لانتهاك المقدّس وللتمرّد على السلطة الإلهيّة؛ وهو الصوت المعبِّر عن المحرّم والخطيئة والخروج الأبدي عن القوانين الإلهيّة.

وبالإضافة إلى حرّيّة التعبير المتجلّية في الآيات السابقة تنصّ آيات أخر على الحرّيّة في اختيار المعتقد الدينيّ؛ مثل قوله -تعالى-: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[2]، فالإيمان والكفر موكول لاختيار الإنسان الفرديّ، وتثبت كتب التاريخ أنّ اليهود في عهد الرسول ﷺ كانوا يعيشون مع المسلمين في أمن وسلام، ولم يجبرهم المسلمون على تغيير معتقدهم الدينيّ.

إنّ هذه القيم الإسلاميّة، لا بدّ أن تتبلور بصفة عمليّة واضحة، وأن يمارسها المسلمون في الواقع الاجتماعيّ والثقافيّ والسياسيّ الرّاهن؛ حتّى لا تبقى قيمًا نظريّة مجرّدة ومفصولة عن الحياة والتاريخ في مختلف تجلّياته، حيث نرى أنّ المسلمين في العقود الأخيرة ازدادوا

(1) سورة الأعراف، الآيات 12-15.
(2) سورة الكهف، الآية 29.

تمسّكًا بهذه القيم، لا لأنّها من المكوّنات الأبرز المشكّلة للهويّة الجماعيّة عند الشعوب الإسلاميّة فحسب، ولا للشعور بالتبعيّة المكبّلة والانهزام والضعف والتخلّف الذيشعرت به هذه الشعوب بعد غزو العولمة المستبدّ والقاهر لمجتمعاتها؛ وإنّما -كذلك- لأنّ هذه القيم الإسلاميّة ليست خاصّة بالمسلمين دون غيرهم، بل هي ذات توجّه كونيّ تضمن التواصل بين الشعوب في العالم، وتقبل الاختلاف والتعدّد في شتّى أشكاله،ولا تعادي حرّيّة الإنسان في اختيار عقيدته ودينه. وحتّى إنْ تجلّى في الواقع التّاريخيّ وفي سلوك المسلمين ما يتعارض مع هذه القيم؛ فإنّ ذلك محسوب على الأخطاء البشريّة القابلة للإصلاح والتصويب. فهذه القيم الإسلاميّة تلتقي في النهاية مع القيم الإنسانيّة، ومع حقوق الإنسان؛ وهذا ما يضمن لها أحقّيّة حضورها في العالم.

خاتمة:

إنّ العولمة لم تُشعِر العرب والمسلمين إلّا بالتبعيّة للغرب. وهذه التبعيّة تسلبهم يومًا بعد يوم الشعور بحرّيّتهم وبحقّهم في اختيار أنماط عيشهم وطرائق حياتهم وسلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم، فازداد الإحساس لديهم بالضياع والغربة والاستلاب، ونما شعورهم بالتمرّد والاحتجاج على القوى الغربيّة؛ وأبرزها أمريكا التي تهيمن على العالم؛ باعتبارها قوّة اقتصاديّة ونظامًا رأسماليًّا ليبيراليًّا متوحّشًا لم يجلب إلى الشعوب العربيّة والإسلاميّة إلّا الشّقاء والتّعاسة والدّمار.

ومن الطبيعي إزاء هذه التبعيّة المدمّرة وخيبة الأمل الحاصلة منها، أن يتمسّك المسلمون بدينهم وقيمه؛ بوصفها ملاذًا يحميهم من شرور العولمة وقيودها ومكرها وجحيمها.

وإذا كانت الأمركة تقوم على فرض أنموذج اقتصاديّ وثقافيّ وسياسيّ على العالم؛ بما يعني ذلك من قهر للمجتمعات، ومحاولة لإبادة قيمها

المحلّيّة وثقافاتها الخاصة بها، فإنّ الإسلام ينهض على قيم تؤكّد على التواصل بين الشعوب.وقد اتّسع أفق هذا التواصل في العقود الأخيرة بوساطة وسائل الإعلام وتكنولوجيا المعلومات، وأدّى إلى تبادل المنافع والمصالح في المجالات كافّة، والتثاقف والتعارف والتحاور مع الآخر، وممارسة الحرّيّة الذاتيّة في التعبير وفي المعتقد، وفي غيرها من الممارسات اليوميّة وقبول الاختلاف.

ويبدو لنا أنّ القيم الإسلاميّة التي ذكرناها لا تتعارض مع القيم الكونيّة وحقوق الإنسان. ولكنّ المشكلة تكمن في أنّ بعض التيارات الإسلاميّة المتشدّدة والمتطرّفة في البلدان العربيّة والإسلاميّة تبدي في ممارساتها اليوميّة وفي خطاباتها ما يتنافى مع مبدأ الحرّيّة، وما يلغي الحوار مع الآخر المختلف. وهذا ما يسِمُهُم بالعنف والإرهاب والرجعيّة وغيرها من الصفات التي تجعلهم معزولين، ومنبوذين، ومكروهين، ومصدر خوف وفزع، لا من الحكّام والأنظمة العربيّة والغربيّة فحسب،بل-أيضًا-من الشّعوب كافّة.وهم بذلك لا يخدمون الإسلام وقيمه التي تحترم الإنسان وحرّيّته الذاتيّة وتقبّل الاختلاف بين الناس، ولا يصدّرون إلى الغرب وإلى العالم إلّا صورًا سلبيّة عن الإسلام والمسلمين؛ لأنّ الإعلام الأجنبيّ لا يهتمّ بالقيم الإسلاميّة الواردة في القرآن أو في السنّة النبويّة،بقدر ما يعنيه نقل ممارسات المسلمين وسلوكهم وعلاقاتهم بالآخر.

ومن الأسئلة المطروحة اليوم في هذا السياق: كيف يصدِّر المسلمون للعالم صورًا إيجابيّة تلغي الصّور المشوّهة المنمّطة عن الإسلام في المجتمع الغربيّ، والتي لا تتخطّى القتل والتفجير ومعاداة الآخر المختلف؟! وكيف يحمي المسلمون قيمهم الدينيّة أمام سطوة الأمركة والعولمة والتقدّم التكنولوجيّ؟!

إنّنا اليوم أمام قيم مادّيّة تنهض وتنمو بفعل هذا التقدّم التكنولوجيّ،

ولكنّنا كذلك نواجه واقع قيم أخلاقيّة ودينيّة تتهاوى. ولذلك نرى في سائر البلدان العربيّة صراعًا بين من يتمسّكون بالهويّة العربيّة والإسلاميّة، وبين من يعلنون أنّ الدين ظاهرة لا عقلانيّة، مآلها إلى الاندثار في مجتمع الذكاء والمعرفة وانتصار العقل والحسم العلميّ. فالمجتمع العربيّ والإسلاميّ توّاق إلى المعرفة والتكنولوجيا الحديثة التي لم يعد قادرًا على الانفصال عنها، كما أنّه متمسّك بالثقافة المحلّيّة وبخصوصيّاته وبالقيم الإسلاميّة. فهل يمكن له توظيف تكنولوجيا المعلومات لتسويق صورة ناصعة عن الإسلام والمسلمين والقيم الإسلاميّة؟ وهل يقدر هذا المجتمع على الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات والمحافظة على قيمه في آن؟!